﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١٦﴾ [آل عمران: 116]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الآيةُ استئنافٌ للانتقال إلى ذكر وعيد المشركين، ومصير مَنْ أصرَّ على الكفر من أهل الكتاب مناسبة لِمَا سبق من ذكر وعد الذين آمنوا منهم بهذا القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١١٠﴾ [آل عمران: 110]؛ فعرَّج هنا على بيان كفر هذه الفئة الضَّالّة منهم؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُغۡنِيَ﴾: جذر الكلمة هو (غَنِيَ)، أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى الْكِفَايَةِ، يُقَالُ: غَنِيَ يَغْنَى غِنًى، وَالْغَنَاءُ بِفَتْحِ الْغَيْنِ مَعَ الْمَدِّ: الْكِفَايَةُ. يُقَالُ: لَا يُغْنِي فُلَانٌ غَنَاءَ فُلَانٍ، أَيْ لَا يَكْفِي كِفَايَتَهُ؛ والغِنَى، مقصور، في المال. واستغنى الرَّجل: أصاب غِنىً. والغُنْيَةُ: اسمٌ من الاستغناء، والغنيُّ: ذو الوفر. والغانيةُ: الشابّةُ المُتَزَوِّجة. يقال: غَنِيَتْ بزَوْجها[2]، وأغنى فلانٌ في الحرب غناءً حسنًا. وأغنى عني فلان غناءً؛ أي كَفَّى في الدَّفع. قال تعالى: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١﴾ [الليل: 11]، وأغناني الحلال عن الحرام. وتقولُ للشّيء إذا فَنِي: كأَنْ لَم يَغْنَ بالأَمْسِ، أي: كأَنْ لَم يكن، وغَنُوا في ديارهم ثمّ فَنُوا، وخَرِبت مبانيهم: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۗ﴾ [هود: 95][3]. ومن الغِنَى: عدمُ الحاجات، وليس ذلك إلا لله تعالى، هو المذكورُ فيه قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤﴾ [الحج: 64]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر: 15]. ومنه: قلّةُ الحاجات، وهو المشارُ إليه بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ٨﴾ [الضحى: 8][4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/60.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (غني).
(4) الراغب، المفردات: (غني).

والمعنى هنا: لَنْ تَدْفَعَ.

2) ﴿أَصْحَٰبُ﴾: جذر الكلمة هو (صَحِب)، أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى مُقَارَنَةِ شَيْءٍ وَمُقَارَبَتِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ لَاءَمَ شَيْئًا فَقَدِ اسْتَصْحَبَهُ؛ والصّاحِبُ: الملازِمُ إنسانا كان أو حيوانا، أو مكانا، أو زمانا، ويجمعُ على الصَّحْب، والصُّحبان، والصُحْبة، والصِّحاب. والأَصحابُ: جماعة الصَّحْبِ. ويستعملُ الصاحبُ في الاقتران الدائم مثل قوله تعالى: ﴿كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: 48]؛ إذ صار يُعرف به، وكذلك (أصحاب الجنة)، (أصحاب النار) وما بمعنييهما، وكذا أصحاب (السبت)، و(الأعراف)، (مدين)، (الأيكة) ونحوها؛ لأنها صارت ملازمة لهم كأنها كناياتٌ عنهم، أو صاروا ملازمين لها كأنهم أهلوها ومُلَّاكها[1].

3) ﴿خَٰلِدُونَ﴾: جذر الكلمة هو (خَلَدَ)؛ والخُلْدُ في الأصل بمعنى: الثَّباتِ والمُلازمة[2]، والخُلودُ اصطلاحًا: هو: تبرِّي الشَّيءِ منَ اعتراض الفساد، وبقاؤُه على الحالة الَّتي هو عليها، وكلُّ ما يتباطأُ عنه التَّغييرُ والفسادُ؛ تصفُه العربُ بالخلود، وأصلُ المُخلَّد: الذي يبقى مدَّةً طويلةً[3]..

والمعنى هنا: الملازمون للنّار، لا يخرجون منها.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يخبر تعالى أنَّ الذين كفروا من اليهودِ وكُلِّ مَن كَفَرَ بِما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ لَنْ تَدْفَعَ عنهم قوَّتُهم العَصَبيَّةُ - وخَصَّ الأوْلادَ؛ لِأنَّهم أحَبُّ القَرابَةِ وأرْجاهم لِدَفْعِ النوائبِ - ولا قوَّتُهم الماليَّةُ التي يعتزُّون بها ويُفاخِرون، أيَّ شيءٍ ممَّا سينالهم من عذاب اللّه في الدنيا إذا نزل بهم شدَّة أو مرضٌ مُهْلِكٌ، ولا في الآخرة عند نزول العذاب، ولا تجدي عليهم شيئًا من ثواب اللّه، وسجَّل عليهم القرآن أنَّهم أصحابُ النارِ الباقون فيها لا يَخْرجون منها ولا يُفارقونها[4].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المُحكم، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صحب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلد).
(3) الراغب، المفردات: (خلد).
(4) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/196، ورضا، تفسير المنار: 4/62، والموصلّي، أولى ما قيل: 2/529.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ إِيرَادِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ اسْمًا مَوْصُولًا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

شَنَاعَةُ الْكُفْرِ بِاللهِ تَعَالَى وَرُسُلِهِ

جيءَ بالمسندَ إليه اسمًا موصولًا مع صلَتِهِ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون الوصف؛ إذْ لم يقل: (إنّ الكافرين)، وذلك لِمَا في هذا الفعلِ - وهو الكفر - مِن الشَّناعة والبشاعةِ، وفيه إيماءٌ إلى سبب بناءِ الخبرِ؛ وهو كفرُهم، فهذا الفعل الشَّنيعُ منهم - وهو الكفر - هو الذي أَوْدَى بِهِم إلى أسوأِ مَصيرٍ يومَ القيامةِ.

وفي كونِ صلةِ الموصولِ فعلًا ماضيًا إشعارٌ بأنَّ كفرهم متحقِّقٌ، وأنَّهم ثَبَتُوا وأصرُّوا عليه.

واللَّامُ في الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ للجنسِ تُفيدُ استغراقَ أفرادِهِ، وقد ذكر الخَازِنُ احتمالَ كونِ الآية عامّةً في جميع الكفّارِ؛ لأنّ اللّفظ عامٌّ، ولا دليلَ يُوجِبُ التّخصيص، فوجب إجراءُ اللّفظ على عمومِه[1].

ويَحْتمِلُ أن تكون اللَّامُ في الموصول عهديَّةً، والمرادُ بهم طائفةٌ مِنَ اليهودِ الذين كانُوا معاصرينَ لرسول الله ﷺ، ولذا قال ابن عباس في هذه الآيةِ: يُريد بني قريظة وبني النّضير، وكانوا يَفْخَرُون بأموالِهم وأبنائِهم[2].

ولخّص الآلُوسيُّ القولَيْنِ بقوله: "والمراد مِنَ الموصولِ؛ إمَّا سائر الكفّار فإنّهم فَاخَرُوا بالأموالِ والأولاد: ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ: 35]؛ فَرَدّ اللّه تعالى عَلَيْهِم بذلك، وإمَّا بنُو قُرَيْظَة وبنُو النّضِير؛ إذْ كانت مُعَالَجَتُهم بالأموالِ والأولاد"[3].

(1) الخازن، لباب التأويل: 1/288.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/368.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 2/251.

والقولانِ متآيلَانِ؛ لأنَّ القولَ بجِنسيَّةِ اللَّامِ شاملٌ القولَ بعهديَّتِهَا؛ لأنَّ أفرادَ العهدِ بعضُ أفرادِ العموم، والقول بعهديَّةِ اللَّامِ لا يقصُرُ الحكمَ على المخصوصِينَ بالذِّكرِ؛ لأنَّ الحكمَ مُعَلَّلٌ بالكُفْرِ، فكلُّ كافرٍ هو مثلُهم في المآلِ.

بَلَاغَةُ الْمَجَازِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾:

لَا نَجَاةَ لِلْكَافِرِينَ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ تَعَالَى

مَعْنَى (أغنى عنهُ): دفَعَ عنهُ ومنَعَه؛ فالمراد مِنَ الإغناءِ: الدَّفْعُ[1]، تقول العربُ: أغنى عنهُ، إذَا دفعَ عَنْهُ ضررًا؛ لولاه لنَزَلَ بِهِ؛ فَذُكِرَ في قول اللّه تعالى: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ الفاعلُ وأُرِيدَ الفعلُ على سَبيلِ المجاز.

وثَمَّ وجهٌ آخَرُ للمجازِ فيها، وذلك أنّه قد جُمِعَت الأموال والأولاد في الدّفعِ عنهم، فصارت الأموالُ كرجل عاجز، يُضاف إلى عجز أولاده، لا يستطيعون الدّفع عن صاحبهم، فيكون هذا من قبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ؛ إذْ طُوِيَ ذكرُ المشبَّهِ بهِ، وأُشيرَ إليه بلازمٍ من لوازمِهِ وهو الإغْنَاءُ، وهذا المعنى المجازيُّ وردَ تمثيلًا في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ [البقرة: 266]، والمعنى المُراد من هذه الأمثلة أنّهم لَن تَدْفَع عنهم يوم القيامة أموالُهم التي عوّلوا عليها في المهمّات ولا من هو أرجى من ذلك وأعظم عندهم - وهم أولادهم - مِنْ عذاب اللّه تعالى لهم شيئًا يسيرًا منه[2].

ويجُوز أن يكُونَ قولُه: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾ مِنَ الغَناء بمعنى الكفاية، والمعنى: لا تغني عنهم نوعًا من أنواع الغناء، أو لا تغني غنَاءً مَا[3].

(1) القاسميّ، محاسن التأويل: 2/391، والآلوسي، روح المعاني: 2/252.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 2/252.
(3) رضا، تفسير المنار: 4/62.

سِرُّ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ ﴿عَنْهُمْ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ﴾:

انْتِفَاعُ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِإِنْفَاقِ أَمْوَالِهِمْ وَعَمَلِ أَوْلَادِهِمْ

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَنْهُمْ﴾ هنا للقصر والاختصاص، فإنَّ نفيَ الإغناءِ مختصٌّ بالذين كفرُوا؛ إذ أهل الإيمان الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله تعالى ينفعُهم ثوابُ ذلك الإنفاق، ويضاعفهُ الله سبحانه لهم أضعافًا كثيرة.

وكذا ينتفعُونَ بعملِ الخيرِ الذي يعملُهُ أولادُهم؛ لأنَّه من جملةِ كَسْبِهم[1]، كما قال رسولُ الله ﷺ: "إِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ"[2].

التَّنَاسُبُ بَيْنَ الْغِنَى وَالْأَمْوَالِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ﴾:

الْغِنَى عِنْدَ الْإِطْلَاقِ بَيْنَ النَّاسِ هُوَ غِنَى الْمَالِ، وَجَاءَ الشَّرْعُ بِبَيَانِ أَنَّ أَعْظَمَ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ

وردت لفظة ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ قريبةٌ من جهةِ دِلالَتِهَا من لفظة ﴿تُغْنِيَ﴾، وقُدّم ذِكْرُ الأموالِ على الأولادِ؛ لئلَّا يُقْطَعَ هذا التَّناسُبُ بينَ الغِنَى والأموالِ؛ فإنّ الغِنَى ينصَرِفُ عادةً إلى الغِنَى في الأموال، ومنه قول العرب: استغنى الرّجلُ، أي: أصاب غِنَى المال لا الأولاد[3]، ولا يخفى دورُ المال في تسيير حركة الحياة والتّنافس وموازنات الاقتصاد؛ فإنّها تعتمد اعتمادًا أصليًّا على الأموال.

والمراد بالأموال في قوله: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ﴾ جميع نفقات الكفّار في الدّنيا وصدقاتهم، كما قاله مجاهدٌ[4]، وهو مستفادٌ من الإضافةِ؛ إذ الجمع المضافُ مفيدٌ العُمومَ.

وفي جمع الأموال والأولاد إيماءٌ إلى الكثرةِ، وأنَّهم - ولو كَثُرُوا عَدَدًا - لن يُغْنُوا عن الكفَّار شيئًا.

---

(1) ابن عثيمين، فتح ذي الجلال والإكرام: 4/404.

(2) رواه أحمد في مسنده، الحديث رقم: (25296)، والترمذي في جامعه، الحديث رقم: (1358)، وابن ماجه في سننه، الحديث رقم: (2290)، وصحّحه الألباني في إرواء الغليل، الحديث رقم: (1626).

(3) الخليل، العين: (غني).

(4) الثعلبي، الكشف والبيان: 3/133.

نُكْتَةُ تَكْرِيرِ حَرْفِ النَّفْيِ وَسِرُّ تَخْصِيصِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ بِالذِّكْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ﴾:

لَا يَنْفَعُ الْكُفَّارَ شَيْءٌ فِي الْآخِرَةِ

كُرِّرَ حرفُ النّفي مع المعطوف في قوله: ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾؛ لتأكيد عدم إغناء أولادِهم عنهم، دفعًا لِتوهُّم ما هُو معروفٌ في العادةِ مِن أنَّ الأولاد لا يَتقاصَرُونَ عنِ الذّبّ عن آبائهم[1].

ووجهُ تخصيصِ الأموال والأولاد: أنّ أنفعَ الجماداتِ الأموالُ، وأنفعَ الحيواناتِ الأولادُ، وَبيّن الله تعالى أنّ الكافر لا ينتفع بهما ألبتة في الآخرة، وذلك دالٌّ على عدم انتفاعِه بسائر الأشياء بطريقِ الأَوْلَى، ونظيرُ هذا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: 88، 89]، وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: 48] الآية، وقوله: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران: 91][2].

دِلَالَةُ حَرْفِ الْجَرِّ (مِنْ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾:

فِي تَعَدُّدِ مَعَانِي الْحُرُوفِ إِغْنَاءُ الْمَعَانِي الْقُرْآنِيَّةِ

الجارُّ والمجرور ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ متعلّقانِ بـ ﴿لَن تُغْنِيَ﴾، على اعتبار أنَّ ﴿مِّنَ﴾ ابتدائية؛ والمعنى: لا تُغني عنهم غَناءً صادرًا من الله تعالى بالعَفْوِ عَن كُفْرِهم، و﴿مِّنَ﴾ التي لابتداء الغاية هي في قول الْمُبَرِّد بمعنى: (عند)[3]، فقول الله تعالى: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ معناها: عند الله[4]، وجعله أبو عبيدةَ مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ [قريش: 4]، وقال: معناه (عندَ جُوعٍ) و(عندَ خَوْفٍ)[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/60.
(2) الرّازي، التّفسير الكبير: 8/336.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/60.
(4) ابن المنذر، تفسير ابن المنذر: 1/135.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/60.

وقال الزمخشري: قوله: ﴿مِّنَ﴾ في قوله ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾، مثله في قوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: 36]؛ والمعنى: لن تغني عنهم من رحمة الله، أو من طاعة الله شيئا، أي: بدل رحمته وطاعته، وبدل الحق. ومنه: "وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ"؛ أي: لا ينفعُه جَدُّه وحظُّه مِنَ الدُّنيا بذلك، أي: بدل طاعتك وعبادتك وما عندك، وفي معناه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: 37][1].

وفي إثباتِ معنى البدليّة لـ ﴿مِّنَ﴾ خلافٌ، وقد استدل مَنْ أثبتَهُ بقوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [التوبة: 38]، أي: بدلَ الآخرة، وبقوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزخرف: 60]؛ أي: لجعلنا بَدَلَكُم.

يَجُوزُ أَن تكونَ ﴿مِّنَ﴾ تبعيضيَّةً؛ بناءً على أنَّ ﴿شَيْـًٔا﴾ منصوبٌ على المصدريَّةِ، كقولكَ: ضربتُ زيدًا شيئًا منَ الضَّربِ، ويَكُون ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في موضعِ الحال مِن ﴿شَيْـًٔا﴾.

فتلَخَّص في معنى ﴿مِّنَ﴾ أقوالٌ؛ أنَّها لابتداءِ الغاية، وهو قول المبرِّد والكلبيِّ، أو أنَّها بمعنى: (عند)، وهو قول أبي عُبَيْدَة، أو تكونُ بَدَلِيَّةً، وهو قول الزّمخشريِّ، أو تكون لِلتّبعيضِ، وهو ما اختاره أبُو حيّانَ[2].

فَائِدَةُ تَخْصِيصِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ بِالذِّكْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾:

لِلْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ خَصِيصَةٌ عِنْدَ النَّاسِ؛ تَكَاثُرًا وَتَبَاهِيًا

قال الله تعالى: ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: التي أَعْرَضُوا عنِ الحقِّ لأجلِها، فَبَيَّنَ اللهُ تعالى وجهَ غُرُورهم بها تحذيرًا مِن جعلِها آلةً للاغترارِ وتَرْكِ الحقّ، وتذكيرًا بِأنّه لا يَنْبَغِي أَن تَشْغَلَ أحدًا عَنِ الآخرة[3].

قال ابن عطيّة: "وخصَّ اللهُ تعالى الأموالَ والأولادَ بالذِّكْرِ؛ لِوُجُوهٍ، منها: أنّها زينة الحياة الدُّنيا، وعُظْمُ مَا تجري إليه الآمالُ، ومِنْهَا: أنّها أَلْصَقُ النّصرةِ بالإنسان وأيسرُها، ومنها: أنَّ الكفَّار

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/339 - 340.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/35.
(3) رضا، تفسير المنار: 3/195.

يَفْخَرُون بالآخرةِ لا همَّةَ لهم إلَّا فيها هِي عندهم غايةُ المرء وبِهَا كانوا يَفْخَرُون على المؤمنين، فذكَرَ اللَّه أنَّ هذين اللَّذَيْن هما بهَذِه الأوصَافِ لا غَنَاء فِيهما مِن عِقَاب اللَّه في الآخِرَة، فإذا لَم تُغْنِ هذه؛ فغَيْرُها مِنَ الأمور البعيدةِ أَحْرَى أن لَا يُغْنِي"[1].

نُكْتَةُ جَمْعِ الْأَوْلَادِ إِلَى الْأَمْوَالِ، وَسِرُّ تَقْدِيمِ الْأَمْوَالِ عَلَى الْأَوْلَادِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾:

قَطْعُ طَمَعِ الْكَافِرِينَ فِي أَنْ يَنَالَهُمْ شَيْءٌ مِنَ النَّفْعِ

ذُكِرَت الأموال والأولاد في قوله: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾؛ لأنّ الغَنَاء في مُتعارَف النّاس يكُون بالمال والولَد، فَالمالُ يَدْفَعُ به المرءُ عَن نفسِه في فِدَاءٍ أو نَحْوِه، والولدُ يُدَافِعُون عَن أَبِيهم بالنّصر[2]، وجُمِعَا معًا لأنَّ الإنسانَ يَدْفَعُ عَن نفسِه تارةً بِفِدَاءِ المَالِ، وتارةً بِالاسْتِعَانَة بالأولَاد[3]، فقُطِعَ - بِجَمْعِهِما - طَمَعُ أَهلِ الْكُفْرِ في أَنْ ينَالَهُم شيءٌ مِنَ النَّفْعِ.

ولَمَّا كان المالُ في بابِ المُدَافعةِ والتّقرُّب والفِتْنَة أبلغَ مِنَ الأولادِ، قُدِّمَ في هذه الآيةِ؛ اهْتِمَامًا بِهِ، وذِكْرًا لِمَا يتوهَّمُ العبدُ أنَّه يُغنِي عنه عَلَى جِهَة التَّدَلِّي، ومن نظائر هذه الآيةِ قولُه سبحانه: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: 37]، وقولُه تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: 28]، وفي قوله: ﴿وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: 20]، وقوله ﷺ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الشّعراء: 88]، وهذا بِخِلَافِ قولِه تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ [آل عمران: 14]؛ فإنَّه ذُكِرَ هُنَا حُبُّ الشَّهوات، فَقُدِّم فيهِ النِّساء والبنُون على ذِكْرِ الأموال[4].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/494.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/60.
(3) الخازن، لباب التأويل: 1/288، والبغويّ، معالم التّنزيل: 1/497.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/34.

فكان حاصلُ ما سبق: أنَّ الأموالَ قُدِّمَتْ في مقامِ الْإِغْنَاءِ والمُدافعةِ عَن صَاحِبِهَا، وقُدّمَ الأولادُ في سياقِ شَهوات الدُّنيا وزِينَتِهَا؛ وذلك لأنّ النّساءَ والأولادَ أكبرُ أثرًا في النّفسِ وتَزْيِينِ التَّكاثُرِ والتّفاخُرِ بينَ النّاس، وأنَّ الأموالَ أَجْدَرُ في الْإِغْنَاء.

وفي ذِكْرِ الأموالِ والأولادِ ههنا إيماءٌ إلى أنَّه لا ينبغي أن يمنعَ أحدًا عن الحقِّ شيءٌ من ذلك؛ لأنّ المغرور إنّما يصدُّه عنِ اتِّباع الحقّ أو النّظر في دليله الاستغناءُ بما هو فيهِ مِنَ النّعم؛ وأعظمُها الأموالُ والأولاد، فالذي يَرى نفسَه مستغنيًا بمثل ذلك؛ قلّما يوجِّه نظرَه إلى طلب الحقّ، أو يُصْغِي إلى الدّاعي إليه[1].

بَلَاغَةُ إِيجَازِ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾:

تَـذْكِـيرُ الْـعِـبَـادِ بِـأَفْـضَـالِ اللهِ تَـعَـالَى تَرْغِيبًا، وَبَطْشِهِ وَقُوَّتِهِ تَرْهِيبًا

في قوله: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾ إيجازٌ بالحذفِ، والتَّقدير: لن تُغنِيَ عنهم مِنْ عذابِ اللّه شيئًا[2]، والمرادُ: عذابُه الدّنيويّ والأخرويّ.

ونكتةُ هذا المجاز: التّذكيرُ باللّهِ تعالَى وبأَفْضَاله عليهم؛ لعلَّهم يَرْعَوُونَ ويرجعونَ عن غيِّهم، وفيه إدخالُ المهابةِ بذكر الاسم الأحسن (اللّه) المتضمِّنِ صفاتِ الجلالِ والكمالِ؛ تهديدًا لَهُمْ وتخويفًا مِنْ عذابِهِ وبطشِهِ بِهِمْ.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾:

عَـدَمُ انْـتِـفَـاعِ الْكُفَّارِ فِي الْآخِرَةِ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ

نُصب (شَيْئًا) من قول الله تعالى: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾ على المفعوليَّةِ المطلقَةِ لِفِعْلِ ﴿تُغْنِيَ﴾، والمعنى: لَنْ تغنيَ عنهم شَيئًا مِنَ الْغَنَاء.

(1) رضا، تفسير المنار: 4/62.
(2) الزّحيلّي، المُنير: 3/158.

وتنكير ﴿شَيۡـٔٗا﴾ يُرادُ به التّقليلُ، أي لن تنفعهم أيَّ نفعٍ ولَو كانَ قليلًا[1]، اجتثاثًا لآمالِهم من جذورِهَا.

نُكْتَةُ وَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ بِمَا قَبْلَهَا:

سُوءُ عَاقِبَةِ أَهْلِ الْكُفْرِ فِي الْآخِرَةِ

عُطِفَ قولُهُ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ على قوله قبلُ: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم﴾، وهذا العطفُ على خلافِ الغالب في نظائرِهَا أَنْ يكُونَ مِنْ غيرِ عطف، والنُّكْتَةُ في العطف: القصدُ إلَى أَن تَكُونَ الجملةُ مُنْصَبًّا عليها التّأكيدُ بحرف (إنَّ)، فَيَكْمُلُ لها من أدلَّة تحقيق مَضْمُونِها خمسةُ أدلّةٍ؛ هي: التّأكيد بـ (إنَّ)، ومَوقع اسم الإشَارَة، وَالْإِخْبَارُ عنهُم بأنَّهم أصحابُ النَّار، وَضَمِيرُ الفصلِ، وَوَصْفُ ﴿خَٰلِدُونَ﴾[2]؛ مبالغةً في بَيَانِ سُوءِ عَاقِبَتِهم وَقُبْحِ مَآلِهم في الآخِرَةِ.

سِرُّ اسْتِعْمَالِ اسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾:

انْحِطَاطُ رُتْبَةِ الْكَافِرِينَ بِاللهِ تَعَالَى وَبُعْدُهُمْ عَنْهُ

اسم الإشارة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قَوْلِه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ – وهو دالٌّ على البُعْدِ – فيه إيماءٌ إلى انحطاطِ رُتْبَتِهم، وَبُعْدِهم عَنِ اللهِ تعالَى، وَتَبَاعُدِهِمْ مِمَّا أَنْزَلَهُ من الشَّرعِ.

بَلَاغَةُ الْقَصْرِ في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾:

خُلُودُ الْكُفَّارِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ

وفي التَّعبير بالجملة الاسميَّة في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ دلالةٌ علَى ثُبُوتِ هذا الوصفِ وتحقُّقه ولزُومه لَهُمْ[3].

وفي الجملةِ تعريفٌ لطَرَفَي الإسنادِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ وهو معرَّف بالإشارة، و﴿أَصۡحَٰبُ﴾ وهو معرَّفٌ بالإضافةِ إلى ما فيه اللَّام، وهذا التَّعريفُ لطَرَفَي الإسناد مُفيدٌ القصرَ والحصرَ، والمقصورُ في مثلِ هذا التَّركيب هو ما دخلت عليه اللَّامُ، تقدَّمَ ذلك أو تأخَّر، وهو هنا: ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ فإنَّها لَمَّا أضيفت إلى ما فيه اللَّامُ؛ كانت بمنزلَتِهِ

(1) الزّحيلّي، التفسير المنير: 3/158.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/60.
(3) الزّحيلّي، التفسير المنير: 3/158.

ورُتبتِه، وحاصلُ معنى القصر: أنَّ فيه قصرَ أصحاب النَّار على الذين كفرُوا، وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ؛ لأنَّ النَّار يدخُلُها عصاةُ الموحِّدين ثُمَّ يخرجون منها، ونكتةُ القصر: التَّنبيه على أنَّ الكفَّارَ هُمُ الأحقَّاءُ بالنَّار؛ إذْ هم خالدُونَ فيها، لا يخرجُونَ مِنْهَا أبدًا.

دِلَالَةُ الْإِضَافَةِ وَالْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾:

حَقَارَةُ الْكُفَّارِ وَلُزُومُهُمُ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لُزُومًا مُؤَبَّدًا

جُعِلَ الكفَّارُ أصحابًا للنَّار في قولِه تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ لأنَّهم مِن أهلِها الذين لا يَخْرُجُون مِنْهَا ولا يُفَارِقُونَها، كصاحب الرّجلِ الذي لا يُفَارِقُه، وقرينِهِ الذي لا يُزَايِلُه، ويُقَوِّيه قولُه بعدُ: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

والإضافة في ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ إضافةُ تَخْصِيصٍ، وهي مقتضِيةٌ ثبوتَ ذلك لهم ودوامه[2]؛ إذ معنى ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أنَّهم مُلَازِمُوهَا[3]، فيَكون قوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ كنايةً عَنِ المُلازمةِ ودوامِ الخلودِ فيهَا.

وفي الإضافةِ أيضًا تحقيرٌ للمضافِ وهم (الأصحاب) المُشارُ بهم إلى الذين كفرُوا.

نُكْتَةُ ذِكْرِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ ﴿هُمْ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾:

الْمُبَالَغَةُ فِي تَوَعُّدِ الْكُفَّارِ وَتَهْدِيدِهِمْ دَالٌّ عَلَى عِظَمِ جَرَائِمِهِمْ

ذُكِرَ الْمُسْنَدُ إِلَيْهِ ﴿هُمْ﴾ مِن قَوْلِ اللّٰه تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، ولَوْ حُذِفَ بأَنْ يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (أُولَئِكَ أصحابُ النَّارِ فِيهَا خَالِدُونَ)؛ لأدَّى أَصْلَ المعنَى، إلَّا أنَّهُ ذُكِرَ الْمُسْنَدُ إِلَيْهِ ﴿هُمْ﴾ قصدًا إِلَى زيادةِ التَّقريرِ والإيضاحِ، وذلكَ كَمَن يُمْسِكُ بِمُجْرِمٍ عاثَ في الأرضِ فَسَادًا، فيُقال على رُؤُوسِ الأشهادِ: هذا الذي قَتَلَ، هذا الذي سَرَقَ، هذا الذي أَفْسَدَ.

(1) الثّعلبي، الكشف والبيان: 3/133.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/494.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/494.

وتقديم الجارِّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ يُفيد القصرَ والاختصاصَ، والمرادُ: تخصيصُ خلودِهم في النَّارِ، زيادةً في وعيدِهم وتهديدهم وأنَّ خلودَهم في النَّار لا يتحَوَّلُون عنْهَا إلى غيرِها.

وفي التَّقديم ملْحظٌ لفظيٌّ وهو التَّناسبُ الصَّوتيُّ لرؤوسِ الآي[1].

دِلَالَةُ اسْمِيَّةِ الْجُمْلَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، وَسَبَبُ فَصْلِهَا عَمَّا قَبْلَهَا:

الجزاء يوم القيامة حتميّ، ثُمّ يُختم بالخُلود

الجملةُ الاسميَّةُ في قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مُؤذِنَةٌ بدوام الوصفِ المذكورِ وثبوتِهِ[2]، وأنَّ خلودَهُمْ أبديٌّ كما دلَّت عليه أدلَّةٌ متكاثرةٌ من الكتابِ والسنَّةِ.

وقولُه: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وردَ تأكيدًا وتقريرًا للجملة قبلَه وهِيَ قولُه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، ولذا فُصلَت عنْهَا؛ لما بينَهما من كمال الاتِّصالِ.

ويحتَمِلُ أن يكون بين الجملتين: شبهُ كمال الاتِّصال، وهو المعروف بالاستئنافِ البيانيِّ؛ فيكون قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ واردًا جوابًا عن سؤالٍ يُفْهَمُ من الجملة التي قبلَهُ، وذلك أنَّ قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ يبعث في نفس المتلَقِّي سؤالًا؛ وهو: هل كونُهم أصحابًا للنَّار يقتضي خلودَهُمْ فيها؟ فجاء الجواب: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

بَلَاغَةُ أُسْلُوبِ التَّرَقِّي فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ ﴿خَالِدُونَ﴾:

عذابُ الكُفَّارِ يومَ القِيامَةِ أنواعٌ، بعْضُهَا أشَدُّ مِنْ بعْضٍ

تضمنت الآية الكريمة مراحل التّرقّي في وصف ما يُصيب الذين كفروا؛ فجعل أولى المراحلِ: حرمانَهُمْ ممّا كانوا يتمتّعون به في الدّنيا؛ فقال: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، ثمّ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/252.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/252.

عقّب وسجّل عليهم صُحْبَتَهُمْ لِلنّار يوم القيامةِ بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾، ثُمَّ خَتَم بِأَشْنَعِ ما يُصِيبُ الخلقَ يومَ القيامة؛ وهو الخلودُ في النَّار، فقال: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

وفائدة هذا الأسلوب البديعيّ: التَّدرُّجُ في التّرهيبِ مِن هَوْلِ ما يُصِيب الذين كفروا يومَ القيامةِ، وهو أوقَعُ في النُّفوسِ، حيث تتلقَّى النَّفسُ تهديدًا شديدًا، حتَّى إذا ظَنَّت أنَّ هذا آخرُ شيءٍ - مع شدَّتِه - يُصادِفُهَا وعيدٌ آخرُ أشدُّ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس، سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 5 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-57-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 5 : سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-57-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1170694 بتاريخ 2023/03/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»